ابـــــن الســـــماك

(توفي سنة ١٨٣هـ)

يطالب هارون الرشيد بتقوى الله

obeikandl.com

يقول النبي ﷺ: «**من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لا يصبح ويمسي ناصحا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم**».

فالإسلام يريد من كل فرد في هذه الأمة أن يمد أشعة ما معه من الهدى والنور إلى المجتمع من حوله، وأن يقوم بالصلاح والإصلاح في المجتمع.

فلا يكفي أن يكون المسلم صالحا في نفسه سليم العقيدة، صحيح العبادة حسن المعاشرة، ثم يدع الحق مغلوبا، والباطل غالبا، والمعروف ضائعا والمنكر ظاهراً قاهراً، وهو لا يحرك ساكنا، ولا يبذل جهدا، فالمؤمن الحق يعمل من أجل الحق والخير والفضائل.

وإن كان هذا واجب كل مسلم، فإن واجب العلماء نحو الأمة كبير، وقد عرف علماء السلف الصالح أهمية هذا الدور، فقاموا بواجب النصيحة والدعوة إلى الله في مختلف العصور، ولم يتهاونوا في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإعلاء كلمة الله، ورفع راية العدل، فاستقامت بهم الحياة وسعدت بهم الأمة، ومن هؤلاء العلماء «ابن السماك»، الذي قام بواجب النصيحة أيام أمير المؤمنين «هارون الرشيد».

وابن السماك هو: محمد بن صبيح بن السماك، من وعاظ أهل الكوفة، ذهب إلى بغداد ومكث بها مدة، ثم عاد إلى الكوفة، وتوفي فيها سنة ١٨٣هـ(*).

اتق الله:

تعلم ابن السماك ووعى ما قاله رسول الله ﷺ: «**والله ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار**»، تعلمها وعمل بها، وأشفق على هارون الرشيد فعلمها له.

كان عند الرشيد يوما، فطلب منه النصيحة والموعظة فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله وحده لا شريك له. واعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما: جنة أو نار، فبكى هارون حتى ابتلت لحيته بالدموع ثم

(*) أحمد رضوان أبو الخير، «من مواقف العلماء»، دار المنار، ١٩٩٧، ص١٤٦.

طلب هارون ماء ليشرب، فلما وضع الماء على فيه ليشرب قال ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت عنك هذه الشربة فبكم كنت تشتريها؟

قال: بنصف ملكي، فقال له ابن السماك: اشرب هنأك الله، فلما شرب قال له: أسألك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ، لو منعت خروجها من بدنك، بماذا كنت تشتريها؟

قال: بجميع ملكي، قال ابن السماك: إن ملكا قيمته شربة ماء، لجدير ألا ينافس فيه، فبكى هارون الرشيد حتى أشفق الحاضرون عليه.

كان «ابن السماك» من العلماء الذين يعيشون لله، ويعملون لله، ويتوكلون على الله في مواطن الفزع، ويقولون كلمة الحق وقلوبهم أثبت من الجبال; بعث هارون إلى السماك، فلما أخذه الحرس بغير رفق ورآه الرشيد قال: ارفقوا بالشيخ، فلما وقف بين يديه قال له: يا أمير المؤمنين، ما مربي يوم منذ ولدتني أمي أتعب فيه من يومي هذا، فاتق الله في خلقه واحفظ محمدا ﷺ في أمته، وانصح لنفسك في رعيتك، فإن لك مقاما بين يدي الله تعالى، أنت فيه أذل من مقامي هذا بين يديك.

فاتق الله واعلم أن من أخذ الله وسطوته على أهل المعصية..وراح «ابن السماك» يصف عقاب الله لأهل المعصية، فاضطرب الرشيد على فراشه متأثرا بوصف ابن السماك لما يلاقيه هؤلاء من عذاب الله، فقال ابن السماك له: يا أمير المؤمنين هذا ذل الصفة، فكيف لو رأيت ذل المعاينة، يقصد ما بالك لو كنت أنت منهم، فكادت نفس الرشيد تخرج من خشية الله.

السماك وابن الرشيد:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

من هذا المنطلق القرآني فهم «ابن السماك» الدنيا على حقيقتها، فحذر من الاغترار بها حتى لا تبعد الناس عن ربهم، وعما أعده لهم من خير في جنات النعيم،

لم ينصح بها العامة فقط، بل نصح بذلك أيضا ولي أمر المسلمين، وحاكمهم هارون الرشيد. الذي قال للسماك عظني.

فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك، فلا ترضى من نفسك إلا بما رضى الله به عنك، فإنك ابن عم رسول الله ﷺ، وأنت أولى الناس بذلك يا أمير المؤمنين، من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليقاً أن يعتق نفسه، قبل أن يحين يوم لقاء ربه، يا أمير المؤمنين، من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها.

يا أمير المؤمنين، ناشدتك الله أن تقدم إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وقد دُعيت إليها وليس لك فيها نصيب.

يا أمير المؤمنين تموت وحدك وتُحاسب وحدك، وأنك لا تقدم إلا على نادم مشغول، ولا تخلف إلا مفتونا مغرورا، وإنك وإيانا في دار سفر وجيران مرتحلين.

كان «ابن السماك» يقدم النصيحة وهو يعرف أن من يستمع إليه هو خليفة المسلمين، ومع ذلك كان يسترسل في نصحه وإرشاده، لم يهتز له جفن، ولم تأخذه رهبة أو خوف، فالنصيحة واجبة، حتى ولو كانت للحاكم الذي يرهبه الجميع، حذر «ابن السماك» الرشيد من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، وطلب منه أن يتقي الله سبحانه وتعالى، وأن يعد العدة ليوم الحساب، يوم يلقى الله وحده، ويحاسب وحده، ولن ينفعه أحد من هؤلاء البطانة الذين لا يدلون إلى خير، ويدفعون الحاكم إلى الانشغال بدار الغرور.

كلما كانت النصيحة أكبر كان الشكر عليها أعظم، لذا يجب أن يكون الحاكم أكثر الناس شكرا لله تعالى، ومن أكثرهم طاعة لله سبحانه، وهذا ما ذكر به «ابن السماك» «هارون الرشيد».

***

طاعة الله:

هذا الخليفة الذي ظلمه الناس، كان يحرص على تحري طاعة الله، وأن تكون خطواته، وقراراته قدوة للمحكومين، فهو يعلم علم اليقين أن الناس علي دين ملوكهم، فإذا تحرى الحاكم الحلال والحرام، واتقى الله في كل أمر، صلحت الرعية، ولهذا كان حريصا على أن يكون علماء الدين الذين عرف عنهم قول الحق ومخافة الله وعدم نفاق الحاكم في صدر مجالسه، وكان من بين هؤلاء «ابن السماك».

في أحد هذه المجالس طلب هارون من ابن السماك» أن يعظه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن أولى الناس أن يرغب في نعيم الآخرة، من ذاق نعيم الدنيا، فبكى هارون فقد حقق ونال هذا النعيم الكثير، وقال: زدني يا «ابن السماك».

فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تبارك وتعالى لم يرض لك أن يجعل فوقك في الأرض أحدا، فلا ترضى أن يكون في الأرض أحد أطوع لله منك. فعاود «هارون البكاء»، فقال وزيره الفضل: يا «ابن السماك»ارفق بأمير المؤمنين، ولكن هارون قال له: اتركه يفعل يا فضل فما أحوجنا إلى مثل ما يقول حتى لا تشغلنا الدنيا عن الآخرة، ثم قال: تكلم يا «ابن السماك» وادع الله أن يرحمنا.

فقال «ابن السماك» وهو رافعا يده إلى السماء: اللهم إنك قلت: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]، أفتراك يا رب تجمع بين أهل القسمين في مكان؟ فمازاد «هارون» إلا بكاء.

رجل الدين الحق:

هكذا كان علماء الدين، ولأنهم إذا صلحوا صلح الحاكم، فما أحوجنا إلى هذا الصنف من العلماء الذين لا يحركهم إلا تقوى الله ولا هدف لهم إلا تطبيق الشرع وإعلاء كلمة الحق، في وقت كثر فيه النفاق وتغلبت المصلحة الفردية، وتحول العلماء إلى تابعين للحكام يبررون كل ما يصدر عنهم حتى ولو كان مخالفا لشرع الله، إلا من رحم ربي.

وما أحوجنا إلى حاكم عادل يتقي الله في الرعية ولا يهدف إلا إلى صالح شعبه ونصرة دين الله، ولا تشغله الدنيا وجمع الأموال وتأليف قلوب المنافقين من حوله المنتفعين بوجوده واستمرار نفوذه، ما أحوجنا إلى حاكم لا تغضبه كلمة الحق ولا يأمر بسجن وتعذيب من يقول له اتق الله. وكأنه أصبح الحاكم بأمره وأنه غير محاسب على ما يفعله.

obeikandl.com